المحاضرة (05): المرجعيات الفلسفية لنظرية التلقي الألمانية (1)

- الخلفيات الفلسفية
- الظاهراتية
- مفهوم القصدية
- مفهوم التعالي
- العمل الأدبي عند (انجاردن)

المرجعيات الفلسفية لنظرية التلقي الألمانية (1)

تمهيد:

ظهرت نظرية التلقي في أواخر الستينات من القرن العشرين في ألمانيا، وكان ذلك نتيجة للقيام بعملية إصلاح وتقويم للمناهج الدراسية الألمانية، التي جاءت بعد تمرد الباحثين هناك، "وقد ارتبط هذا التمرد المنهجي في ألمانيا بعملية تقييم جديدة لمناهج التعليم في مجال الأدب واللغة... وقد ختمت بمذكرة إصلاح (الأبنية والأدب)، تقترح إحداث تغييرات جذرية في البرامج الأكاديمية، وقد وقّع على هذه الوثيقة عدد من الباحثين الذين صاروا فيما بعد أبرز ممثلي التلقي مثل ياوس وآيزر وسيدفريد شيفت [1] "

دون أن ننسى عاملا مهما آخر أسهم بشكل جليّ في ظهور نظرية التلقي ألا وهو النفور من البنيوية، "... حيث تبيّن أن اختزال النص الأدبي في مجموعة من الأشكال عديم الجدوى، وأصبحت الشعرية (البنيوية)في مأزق، فكل دراسة تعنى بالبنية فقط هي نماذج عمومية وناقصة جدا " [2]؛ ولكن هذين العاملين الأساسين الذين أديا إلى ظهور نظرية التلقي لا ينفيان طبعا وجود متكآت ومرجعيات فلسفية ومعرفية قامت عليها هذه النظرية.

---

[1] عبد الناصر حسن محمد: نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 1999، ص 100

[2] فانسون جوف: القراءة، تق وتر: محمد آيت لعميم ونصر الدين، شكسبير، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط 1، 2013، ص 15

الخلفيات الفلسفية:

لا شك في أن نظرية التلقي بنت قاعدتها النظرية انطلاقا من عدّة روافد فلسفية ومعرفية. كغيرها من النظريات. بحيث اعتمدت على " الإرث التاريخي والفلسفي الألماني من جهة، وما أنجز في الدراسات اللسانية والنفسية والفنية في الفكر الإنساني من جهة أخرى " [1]، وقد كان اعتمادها بصفة خاصة على الفلسفة كونها موردا مهما لمختلف العلوم، متمثلا على وجه أخص في الفلسفة الظاهراتية وفلسفة الهرمنيوطيقا.

الظاهراتية أو الفينومينولوجيا phénoménologie:

خلال أزمنة طويلة تمركز الفكر الغربي حول العقل، ممّا أفرز كوارث إنسانية أُهملت خلالها الذات البشرية، وقد ظهرت فلسفات رافضة لتلك الأوضاع ومناهضة لها، ومن بينها الفلسفة الظاهراتية التي دعت إلى نبذ العقل والعودة إلى الذات حيث " أصبح المنظور الذاتي هو المنطلق في التحديد الموضوعي خارج نطاق الذات المدركة ولا وجود للظاهرة خارج الذات المدركة، وقد وجدت هذه الفكرة صدى واسعا لدى نظريات ما بعد البنيوية التي حولت وجهتها نحو القارئ ومن أهمها نظرية التلقي" [2]؛ وقد جعل هذا الاتجاه الفلسفي من الذات محورا أساسيا في تحديد المعنى فليس ثمة موضوع من دون ذات ولا ذات من دون موضوع.

ويعد الفيلسوف الأماني إدموند هوسيرل(edmundhusserel)رائد الاتجاه الظاهراتي في الفلسفة، وقد جاء بمفهومين أساسيين شكلا أبرز منطلقات نظرية التلقي وهما: القصدية والتعالي، ولكن هذين المصطلحين لم يدخلا مجال الأدب إلا

---

[1] دليلة مروك: استراتيجية القارئ في شعر المعلقات، معلقة أمرؤ القيس أنموذجا، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، 2009، ص 16

[2] بشرى موسى صالح: نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2001، ص 37

بمجيئ تلميذه انجاردن، وقد قام بتطبيقهما على مجال الأدب " إذ حوّل مفهوم القصدية من طابعها المثالي المجرّد إلى حقيقة مادة يمكن تحديدها إجرائيا من تأمل الطبقات التي تتشكل منها بنية العمل الأدبي، وأدرج الإدراك وطاقة الفهم ضمن العمل الأدبي مشكلا استراتيجية جديدة للفهم.... فإدراك الظاهرة الأدبية بقصدية انجاردن قائم على عامل يوجد في ذاتها وآخر يوجد خارج ذاتها (المتلقي)" [1] وبهذا التوجه تكون الظاهراتية قد شكلت أساسا متينا لبناء نظرية التلقي.

وتتجلى أهمية هذا المنظور في أنه أعاد تعريف العمل الأدبي بوصفه بنيةً غير مكتملة بذاتها إلا بعملية التحقق في الوعي؛ فالنص لا يسلّم دلالته تسليمًا نهائيًا، وإنما يقدّم إمكاناتٍ للمعنى تتفاوت درجات تحققها بحسب ما يفعّله المتلقي من انتباه وتأمل وربط واستحضار للسياق. وبهذا يصبح التلقي ليس ملحقًا بالنص، بل شرطًا من شروط وجوده الجمالي، لأن القراءة تُحوّل الإمكان إلى تحقق، وتمنح الطبقات الدلالية في العمل صورتها الفعلية داخل تجربة الفهم.

مفهوم القصدية:

ويقصد بها الشعور القصدي الخالص الذي ينبع من المتلقي وهو يواجه النص، " ويرتبط باللحظة الآنية التي يتعامل فيها المتلقي مع النص الأدبي دون النظر إلى المعطيات السابقة أو التجارب الماضية، بل يتكون المعنى من خلال الفهم الذاتي والشعور القصدي القائم على عملية الفهم والتفسير والإدراك للجانب الداخلي لكل من الذات والموضوع " [2] فالظاهراتية إذن مزجت بين الذات والموضوع، أي بين الآنا والآخر مهما كان هذا الآخر، وبالإسقاط على عناصر عملية التلقي الحديث، تكون الثنائية (الذات / الموضوع) موافقة للثنائية (المتلقي / النص)، ونخلص إلى القول بأن

[1] بشرى موسى صالح: نظرية التلقي، أصول وتطبيقات مرجع سابق، ص 37

[2] المرجع نفسه ، ص 37

المزج بين الذات والموضوع أي التفاعل بين المتلقي والنص يتم بفعل (القصدية)التي تعد المسؤولة عن ملئ الفراغات والبياضات بفهمها وتأويلها.

وتتضح القصدية هنا بوصفها طاقة توجيه داخلية تجعل وعي المتلقي "متجهًا" نحو النص، فينتقي منه ما يراه دالًا، ويرتب إشاراته، ويُبرز بعض العلاقات ويُهمِل أخرى، فتتشكل الدلالة وفق مسار القراءة لحظةً بلحظة؛ وهو ما ينسجم مع ما يقرره علي محمد اليوسف حين يبيّن أن التلقي ليس استقبالًا سلبيًا، بل فعلُ سلطةٍ يمارسها القارئ على النص، إذ يقول: "والقارئ هو الآخر يمارس دوره وسلطته التي تتخذ شكلا مباشرا وشعوريا احيانا، وشكلا خفيا ولا شعوريا احيانا اخرى فهو يعمل على تنظيم القراءة بشكل مباشر وصريحا او بشكل ضمني."[1] وبذلك لا يكون المعنى معطًى جاهزًا ينتظر الكشف فحسب، بل نتيجة حركة وعيٍ نشطٍ يشتغل على العلامات ويحوّلها إلى خبرة مفهومة؛ فالقراءة، بحسب اختلاف درجات الانتباه وطبيعة الأسئلة التي يحملها المتلقي، قد تُظهر في النص ما كان كامناً وتُهمِل ما كان ظاهرًا، وقد تدفع باتجاه تأويلٍ دون آخر، لأن القصدية لا تعمل كقرار واعٍ دائمًا، وإنما كمسارٍ تتداخل فيه الوعي واللاوعي، والتوقعات السابقة والحدس اللحظي، فتتعدد النتائج بتعدد طرائق تنظيم القراءة ذاتها.

ومن ثمّ تغدو القصدية آليةً مركزية في تفسير كيفية سدّ الفجوات داخل العمل الأدبي؛ إذ يترك النص عمدًا مساحات صامتة وإيحاءات غير مصرح بها، فتأتي القصدية لتملأ هذه الفراغات عبر الاستنتاج والربط والتأويل، ولكن ضمن حدود ما يسمح به النسق الداخلي للنص. وبذلك يتأسس التلقي على توازن دقيق: النص يقدّم إمكانات ومعالم توجيه، والمتلقي يفعّلها قصديًا فينتج معنىً متحققًا، لتصبح القراءة

[1] - علي محمد اليوسف، الحداثة: إشكالية التوصيل والتلقي، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2015، ص 60.

فعلًا تواصليًا مركبًا يزاوج بين معطى النص واستجابة الوعي، ويجعل التفاعل بينهما شرطًا لولادة الدلالة.

مفهوم التعالي:

ويعد ردّ فعل عن القصدية ويتحقق انطلاقا منها بالإضافة إلى الفهم، والتعالي عند هوسرل هو أن " المعنى الموضوعي ينشأ بأن تُكوّن الظاهرة معنى محضا في الشعور، أي بعد الارتداد من عالم المحسوسات الخارجية السادية إلى عالم الشعور الداخلي الخالص " [1]بمعنى أن توليد الدلالة ينتج من تفاعل ما تقدمه الظاهرة – التي تقابل النص في نظرية التلقي –وبين ما يوجد داخل الذات القارئة (المتلقي).

إن المزج بين مفهومي القصدية والتعالي، جاء إذن نتيجة إلى سيطرة الموضوع على الذات في المناهج السابقة، إذ عمدت الظاهراتية إلى " إعادة النظر في العلاقة القائمة بين الذات والموضوع، منادية بالعودة إلى الأشياء في ذاتها، مبينة أن الذات المدركة تتصف بالوعي القصدي الإيجابي لتلك الأشياء عكس الموضوع الذي تظهر قيمته وحقيقته إلا بفعل الذات " [2]، وهذا يعني أنه لا يتحقق وجود النص إلا بوجود القارئ ولا تكتمل عملية التلقي إلاّ بالتفاعل بين النص ومتلقيه.

وبناءً على ذلك، لا يعود التعالي خطوةً فلسفيةً تجريدية منفصلة عن القراءة، حيث يصبح لحظةً انتقالية داخل التجربة التأويلية نفسها: لحظةُ تعليق الالتصاق بالمحسوس المباشر والانزياح عن ردّ الفعل الفوري، من أجل التقاط ما يُقيمه الوعي من معنى خالص. وهذا المعنى يتقاطع مع ما يقرره بسام قطوس حين يجعل القراءة فعلَ كشفٍ يتجاوز ظاهر المكتوب إلى طبقاته المضمرة، إذ يقول: "وعندها فقط

---

[1] المرجع نفسه، ص 34

[2] سعيد عمري: الرواية من منظور نظرية التلقي، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، كلية الآداب، جامعة ظهر المهراز، فاس، ط1، 2009، ص20

تتحول القراءة إلى عملية كشف ليس للنص المرسوم على الورق، وإنما لما فوق النص وما تحته." [1] ثم يوضح أن النص لا يهب المعنى جاهزًا: "إن النص لا ينتظر منه أن يقدم معاني أو يبلغ القارئ معنى وإنما هو حقل لتفجير الدلالات، وإن النص يقترح على القارئ معاني ولا يعطيه إياها..." [2] فالقارئ، وهو يواجه النص، لا يلتقط الدلالة كما تُلتقط الأشياء في الخارج، بل يُعيد تشكيلها داخل الشعور عبر انتباهٍ يصفّي التجربة من شوائب العادة والانطباع الأول؛ ومن هنا يمكن فهم التعالي بوصفه "تربية للانتباه" وتهذيبًا لمسار الفهم: إذ يُتيح للمتلقي أن يراجع ما بدا بديهيًا، وأن يختبر العلاقات الممكنة بين العلامات بعيدًا عن ضغط الواقع الخارجي أو سلطة السياق الجاهز، فتغدو القراءة فعلًا يقيم مسافةً نقدية تُنتج المعنى بدل أن تكرره.

كما أن هذا المنظور يفتح مجالًا لتفسير اختلاف الاستجابات القرائية دون إحالتها إلى المزاج أو الذوق وحدهما؛ لأن اختلاف القراءات قد يرجع إلى اختلاف قدرة المتلقي على إنجاز هذا "الارتداد" إلى الشعور الخالص، أي إلى اختلاف مستويات الوعي التي يُشغّلها أثناء التلقي. فثمة قارئ يبقى عند سطح المحسوسات اللغوية: العبارة المباشرة، الإيقاع الظاهر، والمعنى المتداول، وثمة قارئ ينجح في تحويل النص إلى ظاهرة داخلية قابلة للتأمل، فيستخرج معاني لا تمنح نفسها دفعةً واحدة؛ وهذا يتسق مع ما يقرره محمد مفتاح حين يربط اختلاف التأويل باختلاف الأفراد داخل الثقافة الواحدة، إذ يقول: "يعكس التأويل، إذن، الأوليات والمبادئ والأعراف ومشاغل أمة من الأمم، أو مشاغل أفراد من أفرادها. ولهذا، فإن التأويل يختلف من أمة إلى أمة ومن فرد إلى فرد داخل الأمة نفسها، بل قد يختلف أحياناً -جزئياً أو كلياً- لدى الفرد الواحد..." [3] وفي هذه الحالة يصبح التعالي شرطًا لإعادة توزيع السلطة داخل القراءة:

---

[1] - بسام قطوس، تمنّع النص متعة التلقي: قراءة ما فوق النص، ص 10 .

[2] - بسام قطوس، تمنّع النص متعة التلقي: قراءة ما فوق النص، ص 10 .

[3] - محمد مفتاح، التلقي والتأويل: مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربي، ص217 .

لا سلطة للموضوع على الذات، ولا ذوبان للذات في الموضوع، بل علاقةُ تفاعلٍ تُنتج الدلالة عبر مفاوضةٍ مستمرة بين ما يقدمه النص من إشارات وبين ما تُتيحه الذات من خبرةٍ وإدراكٍ وتأمل، بحيث يتكوّن المعنى بوصفه حدثًا يقع في منطقة التماس بينهما لا في أحدهما منفردًا.

العمل الأدبي عند (انجاردن):

يعد انجاردن من الأوائل الذين انتبهوا لمسألة الفجوات والبياضات في النص، وإن لم يطلق عليها هذه التسميات كما أطلقها أصحاب نظرية التلقي ولكنه اعتبر النص مجموعة من الطبقات، ينبغي على المتلقي أن يكتشف ما يوجد بينها، " فقد وصف العمل الأدبي في كتابه (the literarywort of art)بأنه تشكل طبقي، هذه الطبقات تشكل هيكلا أو بناء مخططا له، يجب أن يكمله القارئ، إن المواضع الممثلة في العمل الأدبي تبين بقعا أو نقاطا، أو أماكن غير محدّدة أو مبهمة، وهذا من سمات العمل الأدبي الذي يتطلب نشاطا معينا من القارئ " [1]فخلال التوجه القصدي للقارئ إلى النص فهو يشارك في بنائه عن طريق ملأ الفراغات والفجوات الموجودة فيه.

ونخلص إلى أن نظرية التلقي أفادت من الفلسفة الظاهراتية في بناء قاعدتها وأسسها، ونجمل هذه الإفادات فيما يأتي:

- الاهتمام بالذات القارئة مع عدم إهمال النص (الموضوع).
- المزج الحاصل بين الذات والموضوع أفرز عملية التفاعل بين النص والقارئ والتي هي أساس نظرية التلقي.

---

[1] بشرى موسى صالح: نظرية التلقي، ص 34 -35

– مبدأ القصدية الذي أصبح مفهوما مركزيا لنظرية التلقي، كون النص لا يتحقق وجوده إلاّ إذا وجد قارئا يتوجه إليه قاصدا إيّاه، وفي نفس الوقت يضع المؤلف في حسبانه قارئا يتوجه إليه قاصدا إيّاه.

مقولة التفكير التحفيزي(05)

"أما الظاهرة – حسب انغاردن– فهي تتمثل في بنيتين، الأولى ثابتة (نمطية) و هي أساس الفهم، والثانية متغيرة (مادية) و هي الأساس الأسلوبي للعمل الأدبي، و بالتالي فالمعنى هو حصيلة نهائية للتفاعل بين الفهم وبنية العمل الأدبي."

ناظم عودة خضر:الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن،1997، ص 75 .